العدد 109 - الجمعة 13 جمادى الأولى 1427 هـ - 9 يونيو 2006
Friday - 9 June 2006 - Issue No. 109

على هامش حفلة الملتقى الثقافي الأهلي

لقطات من تاريخ تبلور الجمهور الكلثومي في البحرين

السماع الكلثومي فيه كثير من التذوق الفردي ويتطلب لمن يود أن ينال مراتب أعلى منه شيئاً من المران وحمل سماعه على محمل الجد وبعد أغنية "أنت عمري" والتي أدتها نجمة عبدالله في حفلة الملتقى الثقافي الأهلي والمستعرضة يوم أمس، تستعرض هذه الصفحة أغنية "سلوا قلبي" والتي أداها أحمد الجميري مشاركاً في مهرجان ومؤتمر الموسيقى العربية الثالث عشر الذي عقد بالقاهرة بين 20 و29 نوفمبر/ تشرين الثاني 2005، وكلماتها لأحمد شوقي وألحان رياض السنباطي. وصاحبته فرقة عبدالحليم نويرة للموسيقى العربية مساء 25 نوفمبر/ تشرين الثاني بالمسرح الكبير بدار الأوبرا المصرية.

وقد أداها أحمد الجميري في جلسة خاصة في البحرين عازفاً بنفسه على العود وبمساعدة ضابط إيقاع فقط. وتميز بأدائه ومقدرته على تحريك الجمع الصغير من الجمهور الذي كان حاضراً في ذلك الاستماع.

■ جانب من الحضور الكلثومي في حفل الملتقى الثقافي الأهلي

وقد عرفت أم كلثوم الشاعر أحمد شوقي (1870-1932) قبل أن تغني له، ولقد تأخر هذا الأداء إلى ما بعد رحيله. ولربما عاد ذلك احتراماً لشاعرها بالزجل والفصحى، وهو الأقرب إليها، أحمد رامي.

سلوا قلبي

لا تحاول أن تتذوق اللحن السنباطي بكامله ومنذ أول استماع له. فلكل لحن سنباطي هناك مدخل صغير سيأخذ بلبك منذ أول سماع وسيشكل البوابة التي تلج منها إلى العمل، ويلج العمل منه إلى نفسك.

و"سلوا قلبي" ليست باستثناء، بل ربما كانت أحد أفضل الأمثلة.

وأحد أنسب المداخل لـ"سلوا قلبي"، هو قول شوقي:

ولا ينبيك عن خُلق الليالي
كمن فقد الأحبة والصحابا

فمنه يعبر المرء إلى بقية اللحن بيتاً بيتاً، وبيتٍ بترقب وصوله حين تبدأ الأغنية، والتنعم بأدائه بعد أن تغادره أم كلثوم لأجزاء الأغنية الأخرى.

سلوا قلبي غداة سلا وتابا
لعل له على الجمال له عتابا

تبدأ هذه الأغنية في سلاسة وهدوء ومثل كل القصائد العربية التقليدية فهي تنحو في مقدمتها منحى يتعلق بشؤون الفؤاد والنجوى والحيرة إزاء ما يجتاح القلب من الجسم، حسب الرؤية العربية له، من تقلبات وعدم استقرار. ولكن لم الشكوى والضيق من عضو في البدن لايأتمر بأمر العقل، ولا يسلك سلوك الرشاد وهو المتقلب، المتغير التابع للجمال والعاطفة.

السنباطي يأخذك في مقدمة الأغنية وفي اللحن وحتى هذه الأبيات أخذاً رفيقاً هيناً، يحضرك حيناً للآتي ويدخلك في أولى درجات السلم متعة وتطريباً وتأثيراً، ويعود بك أحياناً إلى ما سبق لتحقيق الربط والانسجام.

ويسأل في الحوادث ذو صواب
فهل ترك الجمال له صوابا

وكنت إذا سألت القلب يوماً
تولى الدمع عن قلبي الجوابا

هنا يبدأ السنباطي في التصعيد وتأخذ أم كلثوم بالمستمع في قولها "الدمع" إلى الشعور بأنها تكاد أن تبكي، وتستفيد من حرف العلة "الألف في "الجوابا" للانتقال بالمستمع إلى درجات أعلى من الأجواء. ثم تغني

ولي بين الضلوع دم ولحم
هما الواهي الذي ثكل الشبابا

فتعود إلى درجات أدنى وأهدأ للتمهيد إلى درجة أعلى في كلمة "الضلوع" في البيت التالي حيث تنتقل بالمستمع بغنائها إلى جنبات متعددة وكأنها تجول بك في الجوف وبين الضلوع، مصورة رحلة القلب وفي موقعه وسط الصدر ومسبغة عليه صفات الحركة والقيام بالتصفيق. هذا بيت متفرد في الغناء الكلثومي وفي التلحين السنباطي، الذي يبين كيفية استفادته من أحرف العلة في الكلمات لاستخدامها تعبيرياً، بحكم الحرية التي يمنحها ذلك الحرف للملحن والمؤدي لتحديد المسافة الزمنية مستفيداً في ذلك من قدرات صوت أم كلثوم في التنقل بين السكك اللحنية صعوداً أو هبوطاً.

تسرب في الدموع فقلت ولى
وصفق في الضلوع فقلت ثابا
ولو خلقت قلوب من حديد
لما حملت كما حمل العذابا

ثم تفاجئك المغنية بالإنتقال بالمعنى واللحن والأداء إلى التسليم إلى المقادير وإعطاء القلب العذر فيما يفعله وما يفعل به.

وتعطي لقلبها الوسيلة، بالقول بأن ما تحمله يفوق ما تتحمله من قلوب من حديد. هذا الانكسار الكلثومي، والركون إلى الواقع والقبول بالأسوأ هو قبول بشري بضعف الإنسان أمام عواطفه وآماله التي لا تتحقق. فالمقادير هي السيدة، وقدرة الإنسان على الفعل محدودة.

وإن لم تقبل هذا الأمر ولازلت بعيداً عن التسليم فالبيت التالي كفيل بتحقيق الأثر. فليس أقدر على تبيان مأساة الإنسان كتتالي فقده للأحبة والأصدقاء. هذه هي المقدمة للموت، فموت المحيطين هو بداية موت الفرد والأصعب إن كان الموتى هم الأحبة والصحاب

هذا هو الدرس الأكبر، والنتيجة المستقرة في العقل. بهذا تبلغ الأغنية قمة عالية ربما فاقت القمة الأكثر شعبية والأكثر انتشاراً والمرتبطة بالبيت الذي اشتهرت به الأغنية وهو القول:

وما نيل المطالب بالتمني
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ويلي البيت المتعلق بـ "خلق الليالي" التحذير من الاغترار بالدنيا، فالشاعر والمغنية والملحن يذكرون السامعين بالشيء المشترك كل عبر أداته، وكل يعزز الآخر بطريقته الخاصة.

فبعد الحزن والتسليم والكمد الأبدي ينبري الثلاثة في تنبيه يقرب من التهديد للمستمع بعدم الوقوع في المصيدة وعدم الانخداع بالمظاهر من هذه الدنيا القصيرة الفانية، التي لا تعطيك من المسرات إلا لتتبعها بالأحزان والآلام.

ولا تنبت الورود إلا لتحيطها بالشوك ولا تغدق عليك من العسل إلا لكي تملأ جوفك بالمرارة. وفي هذا كله تقديم للموعظة الدينية التالية التي تنهي فيها هذه الأقوال التي تقترب من الحكم الشعبية، وهي جل ما قد يتحملها الغناء.

فهذه الأمور كلها تتوقف حيث يبدأ الدين فالحكم هو حكم الله ولا غير ذلك، والباب هو باب العلي القدير لا مدخل من غيره ولا مخرج من سواه.

وهنا يستمر السنباطي في ترنيمته التي تجمع بين تكرار الجملة اللحنية لترسيخ المعنى، وتغييرها في نهايتها لمنع الملل وإيراد معان جديدة.

يبقى القول بأن (سلوا قلبي) التي أدتها أم كلثوم عام 1946 قد جمعت بين الشعر الغزلي العقارب للتصوف والسياسي المنصف بالوطنية والديني المتخذ من مدح الرسول مدخلاً.

ولقد تداخلت حين برزت بالمعارك الوطنية التي كان يخوضها الشعب المصري حينها، واعتبر البيت الذي يقول "وما نيل المطالب بالتمني"، بمثابة تحريض ضد الإنكليز. وأدت أم كلثوم سلوا قلبي 17 مرة تبقى من تسجيلاتها 13 تسجيلاً بينها 8 تسجيلات جيدة.